سيبويه
إمام البصريين، وشيخ النحاة أجمعين!

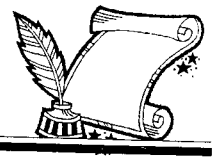

هو إمام البَصريين ، وشيخ النحاة أجمعين ، وهو أول من لُقب بهذا اللقب .

وهو عمرو بن عثمان بن قَنْبَر من أصل فارسىّ ، وقد جاء ذكر اسمه ، واسم أبيه ، واسم جده فى شعر للزمخشرىّ يترحم عليه فيقول :

ألاَ صَلّى الإلهُ صَلاَةَ صِدْقٍ
على عمرِو بن عثمانَ بنِ قَنْبَر
فإن كتابَه لم يَغْنَ عنه
ذَوُو قَلَمٍ ، ولا أربابُ مِنْبَرْ (١)

وله كنيتان : «أبو بشْر» ، و«أبو الحسن»

و«أبو بشر» أكثر استعمالا ، ودوَرانا على الألسنة من «أبى الحسن» وأما لقبه فهو «سيبويه» الذى اشتهر به ، وغلب على اسمه وكُنْيَتيْه ، فأصبح الناس لا يعرفونه إلا بلقبه ، ومعناه «رائحة تفاح» ، أو «تفاحة صغيرة» .

والمعروف ممن شاهدوا سيبويه ، وخالطوه ، وعاشروه أنه كان شابّا ظَريفًا ، لطيفًا ، جميلا ، فلقب بذلك لظَرفه ، وجماله ، ولُطفه !

ويقال : إن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان ، وكان غاية فى الجمال !

(١) لم يغن عنه : لم يستغن عنه ، فالكل محتاج إليه ، وذوو القلم : الكتاب ، وأرباب المنبر : الخطباء .

وقيل : إن أمه التى وضعت له هذا اللقب ، فكانت تُرقّصُه به فى صغره ، فلازمه فى كبره !

ولم يُعرف - بالضبط - تاريخُ ميلاده ، كما لم يعرف تاريخ وفاته . أما مكان ولادته ، فقد ولد فى مدينة من مُدن فارس تسمى «البيضاء» بلدة المفسر الشهير «القاضى البيضاوىّ» .

وقد ترك «البيضاء» وهو صغير ، وذهب إلى «البصرة» التى كانت حافلة بالعلم والعلماء ، ومالت نفسه إلى «دراسة الحديث والفقه» على إمام الحديث ، وشيخ أهل البصرة : حمادِ بنِ سَلَمة ، وكان إماما تقيّا صالحًا لم يُر أفصحُ منه !

وكان يقول لتلاميذه :

● «مَن لَحَن [1] فى حديثى فقد كذب علىّ» .

● «مثل الذى يطلب الحديث ولا يعرف النحو مثل حمارٍ عليه مخلاة ، ولاشعير فيها »

وسأله سيبويه يوما :

أَحَدّثك «هشام بنُ عروةَ» عن أبيه فى رجل «رُعِفَ» [2] فى الصلاة ؟

فقال حماد : أخطأت ياسيبويه ؛ إنما هو «رُعَفَ»، فانصرف سيبويه إلى الخليل شاكيا مالقيه به حماد!

فقال الخليل لسيبويه : «صدق حماد» أمثلهُ يُلقَى بمثل هذا ؟

فتحركت فى نفس سيبويه الرغبة الشديدة فى تعلّم النحو ، فعُنِىَ به ، وأقبل عليه ، وتفرّغ له ، وانقطع إليه ، حتى بلغ

(١) أخطأ الإعراب ، وخالف وجه الصواب في النحو فهو لاحن ولحان .

(٢) خرج الدم من أنفه وسال وسبق .

الغاية منه ، فضُرب به المثل فى التبريز [1] فى النحو ، والعلم بدقائقه وتفاصيله ، وأسراره ، وغريبه ، وأصبح سيبويه رمزا للعالم بدقائق النحو ، الخبير بأسراره المتصرف فى مسائله ، الذى لا تخفى عليه منه خافية !

ومازال اسمه فى النحو كحاتِم فى الجود ، وكقُسّ [2] فى الفصاحة ، وكالأحنف فى الحلم ، وكإياس فى الذكاء ، وكعمرو ابن معديكرب فى الإقدام ، وكالقاضى شُريح فى العلم بالقضاء .

ومن شعر لقُطْرُب يشير إلى هذا التفوق ، وتلك الشهرة :

فأعْلَمُ بالنحوِ من «سيبَوَيه»
وأجودُ بالمالِ من «حَاتِم»

وكذلك يشير أبو تمام قائلا :

إقدام عَمرٍو ، فى سماحة حاتم
فى حِلْم أحنف ، فى ذكاء إياس

وما زلنا نسمع ونقرأ فى كتب الأدب والتاريخ عند وصف عالم نحوى لغوى ، فيقال : هو سيبويه زمانه، وفريد عصره وأوانه ، فتعال أحدثك عنه وعن شيوخه الذين كان لهم أثر فى حياته ، لتعرف لماذا كسر سيبويه قلمه ذات يوم ؟ وعلام عزم؟ وبم حقق هدفه ؟

وأملى أن تزيدك قصة حياته إصرارًا على بلوغ الهدف ، وعكوفا على الإتقان والإحسان !

---

(١) يقال: برّز الرجل ـ براء مشدّدة ـ فاق أصحابه فضلا والتبريز مصدر برّز ، والمراد به التفوق .
(٢) قُسّ بن ساعدة الإيادى خطيب العرب ، ضرب به المثل فى الفصاحة ، وهو عربى جاهلى .

لقب واحد لأربعة من الرجال !

أربعة من الرجال يجمعهم لقب واحد هو «سيبَوَيْه» ومن العجيب الغريب أنهم علماء ، وأنّ صنَاعتَهم النحو !

وإن تعددت أسماؤهم ، وتنوعت كُناهم ، وتفرقت بُلدانهم ! أتدرى من هم ؟ إنهم :

رقم	الكُنية	الاسم	البلد	اللقب المشترك
١	أبو بِشْر	عمرو بن عثمان	البَصْري	سيبويه
٢	أبو بكر	محمد بن موسي	المصري	سيبويه
٣	أبو الحسن	علي بن عبد الله	المغربي	سيبويه
٤	أبو نصر	محمد بن عبد العزيز	الأصفهاني	سيبويه

كلهم يحمل لقب «سيبويه» فما أصل هذه الكلمة ؟

وما معناها ؟ وما ضبطها ؟ ومن أول من لقب بها؟ يقول العلماء : لفظة «سيبويه» مؤلفةٌ من كلمتين :

«سيب» و«وَيْه» .

ومعنى «سيب» فى اللغة الفارسية - «تفاح» .

ومعنى «ويه» فى اللغة الفارسية - «رائحة» .

فالترجمة العربية للفظة سيبويه الفارسية : «رائحة التفاح» .

وهى محببة إلى النفوس .

وقد لُقّب بها أوّل مالُقّب إمام نُحاةِ البصرة : «أبوبشر عمرو ابن عثمان بن قَنْبَر» .

وهو الذى ينصرف الذهن إليه عند الإطلاق ، فهو الأصل ، والثلاثة من بعده تبع له .

والعرب ينطقون بها مفتوحة الباء والواو ، ساكنة الياء ، وإن

كان الفُرس يضمُّون الباء مع سكون الواو وفتح الياء بعدها ، ولا حرج علينا فى نطقها بما يوافق لغتنا !

وهناك من يقول : إن معنى «سيبويه» فى لغة الفُرْس : «تفاحة صغيرة» لا «رائحة تفاح» ، المهم أن هذا اللقب يفيد المدح لا الذم .

وأنت تعرف أن اللقب : ما أشعر بمدح أو ذم .

وأمّا الكنية فهى : مابدئت بأب أو أم .

أما الاسم فهو ذلك الذى سمى به الإنسان عند ولادته وقد يجمع الإنسان بين لقبين ! ، وليس كذلك في الأسماء والكُنَى .

● وقد عاش سيبويه المصرى فى القرن الرابع الهجرى ، ولقى ربه قبل دخول القائد جوهر الصقلى مصر بستة أشهر، فأبدى أسفه عليه ، وقال : لو رأيته لأهديته إلى مولانا المعز فى جملة الهدايا !

● أما سيبويه المغربى ؛ فقد ولد فى أول القرن السابع الهجرى وكان النحو يغلب عليه حتى فى غزله فنراه يقول :

عذبتَ قلبى بهجرٍ منك مُتّصل
يامَن هواه ضمير غيرُ مُنْفَصِلِ
مازال من غير تأكيدٍ صُدُودُك لى
فمــا عُدُولُك من عطفٍ إلىَ بدَلِ

● أما سيبويه الأصفهانى ، فقد كان يعيش فى القرن الرابع الهجرى .

وبعد .. فتعال إلى سيبويه البصرى أحد المشاهير فى عالمنا العربى .

لزم سيبويه «الخليل بنَ أحمد» يأخذ عنه اللغة والنحو ، فبرز [1] مع ثلاثة آخرين هم :

١- النّضْر بن شُمَيل .

٢- وعلى بن نصر الجهضمى .

٣- ومُؤَرِّج السّدوسى .

- فكان سيبويه أبرعهم فى «النحو» .
- وغلب عَلَى النضر «اللغة» .
- وعلَى عَلىّ بن نصر «الحديث» .
- وعلى مؤرّج «الشعر واللغة» .

وكان الخليل يفسح له صَدْره ، ويرى فيه الطالب الذى لا يُضَنّ عليه ، وكان يحبه حُبًا جمًا.

قال ابن النطاح : كنت عند الخليل بن أحمد ، فأقبل «سيبويه» فقال الخليل :

«مَرْحَبا بزائرٍ لا يُمَلّ» .

قال أبو عمرو المخزومى : ما سمعت الخليل يقولها إلا لسيبويه !!

(١) برز : ظهر ، وتفوق ، ولمع .

قصة التحول الكبير فى حياته

حدثتك عن أقران سيبويه الثلاثة ، وما نبغوا فيه ، وأراك تسألنى عن أساتذته ، وتلاميذه ، وأقول:

مع ملازمة سيبويه للخليل كان لايبرح يرتاد كبارَ الشيوخ والأئمة يستكمل علمه منهم ، وكان ألمعهم :

«حماد بن سَلَمة» أول من أخذ عنه العلم ، وكان مفتى البصرة ، ومن المجَابى الدعوة ؛ وكان عالما بالنحو .

وحماد هذا هو الذى دفع بسيبويه إلى حذق النحو بسبب تخطئته إياه فى بعض المسائل النحوية واللغوية !

لقد كان «الحديث والفقه» من أول ما يدرس العلماء ، فأعجبه ذلك وصحب أهلَ الحديث والفقهاء .

وكان سيبويه ذات يوم يأخذ الحديث عن «حماد بن سلمة» معني الحديث فبينما هو يستملى قول النبى ﷺ «ليس من أصحابى إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء» ، فقال سيبويه : «ليس أبو الدرداء[1]» وظنه «اسم ليس» ، فقال حماد:

لَحَنْتَ يا سيبويه !

ليس هذا حيثُ ذهبتَ ، وإنما ليس هاهنا استثناء!

فقال سيبويه :

لا جرَم سأطلب علما لا تُلَحِّنُنى فيه ، فلزم الخليل فبرع !

---

(١) أخذ عليه كذا : عدّه عليه ، ومن ذا الذى ماساد قط ، ومن له الحسنى فقط ؟ لكن أبا الدرداء كان فريدا بين الأصحاب قال فيه الرسول [يوم أُحُد : «نعم الفارس عُوَيمر» [الإصابة ٤/٧٤٨] .

وهناك خبر آخر يرويه «حماد بن سلمة» أستاذه ، قال حماد :

جاء سيبويه إليه مع قوم يكتبون شيئا من الحديث، قال حماد ، فكان فيما أمليت ذكر «الصّفا» فقلت :

«**صعد رسول الله ﷺ الصفا**»[1] ، وكان هو الذى يستَمْلِ[2]، فقال: «صعد النبى ﷺ الصفاء» ؛ فقلت: يا فارسىّ ؛ لا تقل «الصفاء» لأن «الصفا» مقصور[3]، فلما فرغ كسر القلم ، وقال «لا أكتب شيئا حتى أُحْكِمَ العربية» !! ، وانصرف وفى نفسه قول الرسول ﷺ «**إنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**»[4]

وقد قال السابقون : أعط العلم كلك يعطك بعضه، وأعطه بعضك لا يعطيك شيئا ، وإتقان العلم لا يأتى من فراغ ، وإنما هو سهر ، وتعب ، وحرص ، وتفرغ ، وعناية شديدة .

ولعل هاتين الحادثتين المثيرتين مع حوادث أخرى هى التى دفعت بسيبويه إلى العناية الشديدة بتعلم النحو !!

والفضل فى ذلك يرجع إلى أستاذه «حَمّاد بن سلمة» أحد الأساتذة الأفاضل الذين اشتركوا فى صنع سيبويه ، وعندما توفى حماد سنة ١٦٧هـ قال بعضهم :

يا طالبَ النّحوِ ألا فابْكِه
بعد أبى عَمْرٍو وحَمّادِ

---

(١) أخرج مسلم في كتاب الإيمان الحديث كاملا (٣٥٥-٣٥٦) .

(٢) يستملى : يكتب ما يملى عليه.

(٣) الاسم الذى آخره ألف لازمة : مقصور ، فإن كان بعدها همزة فهو ممدود . فالصفا مقصور ، والصفاء : ممدود ولايجوز قصر الممدود ، أو مد المقصور إلا فى الشعر للضرورة .

(٤) انظر تميز الطيب من الخبيث رقم ٣١١ ، ومجمع الزوائد ٤ : ٩٨ .

● ومن شيوخ سيبويه الأخفش الأكبر أحد أئمة اللغة والنحو.

● ومنهم يعقوب بن إسحق أعلم الناس فى زمانه بالقراءات والعربية ، وله قراءة مشهورة هى إحدى القراءات العشر .

● ومن شيوخ سيبويه أصحاب الفضل عليه : عيسي بن عمر الثقفي ، ويذكرون أن له كتابين فى النحو ؛ هما : «الجامع»، و«الإكمال» وهو أحد من أخذ عنه الخليل، وفيهما يقول :

بَطَل النحوُ جميعًا كلُّه
غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك «إكمال» وهذا «جامع»
وهما للناس شمس وقمر

ويُعَدّ «يونس بن حبيب الضبى ثانى العلماء الذين أكثر سيبويه من النقل عنهم ، لقد أخذ سيبويه عن هؤلاء الأعلام «اللغة والنحو» كما أخذ عن غيرهم «الحديث» .

قال ابن عائشة : كنا نجلس مع سيبويه النحوى فى المسجد ، وكان شابا جميلا قد تعلق من كل علم بسبب ، وضرب فى كل أدب بسهم .

أما تلاميذه فعلى رأسهم «أبو الحسن الأخفش» الذى أخذ عن سيبويه مع أنه كان أسن منه !

وعن تواضع العلماء وأدبهم فى مجالس العلم يقول تلميذه أبو الحسن الأخفش : «كان سيبويه إذا وضع شيئا من «كتابه» عرضه علىّ ، وهو يرى أنى أعلم منه - وكان أعلم منى - وأنا اليوم أعلم منه[1]» .

إن دل هذا على شىء فإنما يدل على تواضع سيبويه ،

(١) غير عجيب أن يتفوق التلميذ على أستاذه .

وحرصه على المشاورة فى العلم ، ويدلنا على أن الأخفش شهد مولد «الكتاب» الذى ألفه سيبويه ليصبح المرجع الأول والأخير فى النحو !

ومن تلاميذ سيبويه «قُطْرُب» الذى كان يحلو لسيبويه إذا رآه ببابه أن يقول له : «ما أنت إلا قُطْربُ ليل» !

(والقطرب : دابة لا تستريح نهارها سَعْيًا) .

وربما قل عدد تلاميذه ، لأنه كان أعجم لا يفصح ولعل تلك الحُبسة فى لسانه هى التى دفعته إلى التأليف ، وتنحّت به عن مقام الأستاذية إلى مقام التأليف البارع المقتدر فألف كتابا غاية فى الإتقان والإحكام ، ليس له مقدمة ، ولا خاتمة، وليس له اسم معين يسمى به ؛ فأطلق الناس عليه اسم «الكتاب» ، فإذا قيل : «الكتاب» ينصرف الذهن إليه بعد كتاب الله ، وهو فى خمسة أجزاء ، أراد به سيبويه أن يُحيى علم الخليل فكان له ما أراد ، وبقى النحو العربى حيا إلى يومنا يذكرنا بالخليل وتلميذه الوفىّ سيبويه !

كتاب سيبويه

الذى ملأ الدنيا وشغل الناس

لقد كان سيبويه - رحمةُ الله عليه - أعلمَ المتقدمين والمتأخرين بالنحو ، كما يقول ابن خلكان فى كتابه : «وفيات الأعيان» ، ولم يوضع فيه مثل كتابه .

وذكره الجاحظ يوما فقال : «لم يكتب الناس فى النحو كتابا مثله» وجميع كتب الناس فى النحو عليه عيال [1] !

(١) يقال : هو عيال على غيره : كَلٌّ عليه ، لا يستقل بأمره .

وقال الجاحظ : أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك بن الزيات وزير المعتصم ، ففكرت فى شىء أهديه له ، فلم أجد شيئا أشرفَ من كتاب سيبويه !

فقلت له : لم أجد شيئا أهديه لك مثل هذا الكتاب ، وقد اشتريته من ميراث «الفَرّاء» ، فقال : «واللّه ما أهديتَ إلىّ شيئا أحبّ إلىّ منه» .

ويقول ابن خلكان : ورأيت فى بعض التواريخ أن الجاحظ لما وصل إلى ابن الزيات بكتاب سيبويه ، أعلمه به قبل إحضاره ، فقال له ابن الزيات :

أوظننت أن خِزانتنا خاليةٌ من هذا الكتاب ؟!

فقال الجاحظ : ماظننت ذلك ، ولكنها بخط «الفَرّاء» ومقابلة «الكسائى» ، وتهذيب «عمرو بن بحر» - يعنى نفسه - فقال ابن الزيات : هذه أجل نسخة توجَد وأعزها ، فأحضرها إليه فسُرّ بها ، ووقعت منه أجمل موقع !

ماذا قال العُلَمَاء فى كتاب سيبويه؟

● قيل ليونس بن حبيب (-١٨٣هـ) إن سيبويه ألف كتابا من ألف ورقة فى «علم الخليل» فقال : ومتى سمع سيبويه من الخليل هذا كله ؟! جيئونى بكتابه ، فلما نظر فى كتابه ، ورأى ما حكى قال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل، كما صدق فيما حَكى عنى» .

● أبو سعيد بن أوس الأنصارى يفتخر بتلميذه قائلا : كان سيبويه يأتى مجلسى ، وله ذُؤابتان [1] قال : «فإذا سمعته يقول : حدثنى من أثق بعربيته ، فإنما يريدنى» .

(١) الواحدة ذُؤابة وهى شعر مقدم الرأس .

● محمد بن سلاّم (-٢٣١هـ) قال : «كان سيبويه النحوى غاية الخلق ، وكتابه فى النحو هو الإمام فيه» .

● أبو عثمان بكر بن محمد المازنى كان يقول : «من أراد أن يعمل كتابا كبيرا فى النحو بعد كتاب سيبويه فلْيَسْتَحْيِ» .

● ابن النديم ، محمد بن إسحاق (-٣٨٥هـ) يقول : «وعمل كتابه الذى لم يسبقه إلى مثله أحد قبله ، ولم يلحقه به بعده» .

● صاعد الأندلسى (-٤١٧هـ) يقول : لا أعرف كتابا أُلِّف فى علم من العلوم ؛ قديمها . وحديثها ؛ فاشتمل على جميع ذلك العلم ، وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتبَ :

أحدها : «المجَسْطِى» فى علم هيئة الأفلاك .

والثانى : «كتاب أرسطاليس» فى علم المنطق .

والثالث : «كتاب سيبويه البصرى النحوى» .

هذا رأى الخاصة .

أما العامة القدماء فيقول الراحل : عبد السلام محمد هارون محقق كتاب سيبويه :

وأما العامة القدماء فهذه صورة من نظرتهم إلى سيبويه :

قال رجل لسمّاك بالبصرة : بكم هذه السمكة ؟

قال «بدرهمان» فضحك الرجل ، فقال السماك : ويلك أنت أحمق إنى سمعت سيبويه يقول : ثمنها درهمان [1] !

(١) كان العامة ينظرون إلى سيبويه نظرة إكبار واحترام ، وقوله الحق ، وليس لغيره أن يبدله حتى ولو أساء !! فقد سمع الرجل سيبويه يقول : ثمنها درهمان . فثمنها مبتدأ ، ودرهمان خبر ، وهو مرفوع بالألف لأنه مثنى . وفاته أن الكلمة يختلف إعرابها حسب موقعها ، والعوامل الداخلة عليها ، فهل تظل كما هى مرفوعة حتى ولو دخل عليها حرف جر ؟ الصواب أن يقول : بدرهمين ، ويجر الكلمة بالباء وعلامة جرة الياء .

بين سيبويه والكِسائى

كلاهما إمام للنحو فى بلده !

الكِسائى بالكوفة ، وسيبويه بالبصرة ...

وللكوفة نحوُها وإمامُها ...

وللبصرة نحوُها وإمامها...

وكان بين الكوفيين والبصريين تنافس شديد !

وكانت بغداد عاصمة الخلافة ، وملتقى العلماء .. وكان «سيبويه» كما يقول ابن خلكان فى كتابه : «وفيات الأعيان» : قد ورد إلى «بَغداد» من البصرة !

وكان «الكسائى» يومئذ يعلم «الأمين بن هارون الرشيد» فلما لقى «سيبويه» يحيى بن خالد البرمكى سأله عن خبره ، فقال : جئت لتجمع بينى وبين الكسائى !

فقال يحيى لسيبويه : لا تفعل ؛ فإنه شيخ مدينة السلام ، وقارئها ، ومؤدب ولد أمير المؤمنين ، وكلّ من فى المِصّر[1] له ومعه !

فأبى سيبويه إلا أن يجمع بينهما !

فلما عرف الرشيد خبره ، أمره بالجمع بينهما فى يوم مشهود !

فلما كان ذلك اليوم توجه سيبويه وحده إلى دار الرشيد ،

(١) المصر ـ بكسر الميم ـ البقعة التى يجتمع فيها قرى ومحال ، وتقام فيها الدور والأسواق والمدارس ، والمرافق العامة .

فوجد الفَرّاء ، والأحمر ، وهشام بن معاوية ، ومحمد بن سعدان قد سبقوه !

واقترب منه «الأحمر» قبل المناظرة - وسأله عن مئة مسألة ليضعف من عزيمته ، وليقلل من شأنه ، وكان كلما أجاب سيبويه ، قال له الأحمر : أخطأت يا بصرى !

فأمسك سيبويه عن مجاراته مكتفيا بقوله له : «هذا سوء أدب» !

وحاول سيبويه أن يستجمع أفكاره وعلمه وهدوءه لكى يواجه الكسائى !

وكان اللقاء فى ذلك اليوم المشهود !

الكسائى معه خلْق كثير من العرب !

وسيبويه وحده بلا أنصار ، ولا مشجعين !

وأخذ الكسائى يوجه الأسئلة إلى سيبويه ، وسيبويه يجيب ، وتناظرا ، وجرى بينهما مجلس يطول شرحه !

وهنا قال له الكسائى : كيف تقول يا بصرى :

خرجت وإذا زيد قائم ؟

قال : خرجت فإذا زيد قائم .

قال : أفيجوز أن تقول : خرجت وإذا زيد قائما ؟

قال : لا .

قال الكسائى : كيف تقول :

«كنتُ أظنّ أن العقرب أشدُّ لَسْعَةً من الزُّنْبور ، فإذا هو هى ، أو فإذا هى إياها» ؟

قال سيبويه : «فإذا هو هى» ، ولا يجوز النصب [1]!

فقال الكسائى : «لَحَنْت» وخطأه الجميع ، وقال الكسائى : العرب ترفع ذلك كله وتنصبه .

وردّ سيبويه قول الكسائى ، وخطَّأه !

وهنا قال يحيى بن خالد البرمكى : قد اختلفتما وأنا رئيس بلديكما !

فقال الكسائى : إن العرب ببابك ، وقد جمعتهم من كل فج عميق ، وهم فصحاء الناس ، وقد قنع بهم أهل البصرة والكوفة ، وسمعوا منهم ، وأخذوا عنهم ، فأحضرهم واسألهم ، فأمر بإحضارهم، وعلى رأسهم ثلاثة هم:

أبو فَقعس ، وأبو دثار ، وأبو ثروان ، فسئلوا عن المسائل التى جرت بينهما ، فتابعوا الكسائى !

فأقبل يحيى على سيبويه ، وقال له :

قد تسمع أيها الرجل ؟!! فانصرف المجلس وهم على سيبويه وليسوا معه !

وهنا أعطاه يحيى عشرة آلاف درهم ، وصرفه ، فخرج متجها إلى فارس ، ولم يلبث إلا يسيرا حتى مات غَمًّا !

وفى بعض الروايات : أن «الكسائى» بعد أن تيقن بالغلبة قال للوزير : أصلح الله الوزيرا ، لقد وفد من بلده مؤمِّلاً ، فإن رأيت ألا ترده خائبا !!

فأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم !

(١) كما جاء فى القرآن : ﴿فإذا هى حيةٌ تسعى﴾ [طه :٢١] . ويمكن الرجوع إلى مغنى اللبيب فى هذه المسألة ١/٧٤ .

ويشير أحد النحويين فى منظومة طويلة إلى مادار فى تلك المناظرة فيقول :

والعربُ قد تحذفُ الأخبارَ بعد إذا
إذا عن فَجْأَة الأمرِ الذى دَهَمَا [1]
وربما نصبوا للحال بعد إذا
وربما رفعوا من بعدها رُبّما [2]
فإن توالى ضميران اكتسى بهما
وجهُ الحقيقة من إشكاله غُمَما [3]
لذاك أعْيَتْ على الأفهامِ مسألةٌ
أهدت إلى سيبويه الحَتْفَ والغُمما [4]
وقد كانتِ العقربُ العَوْجَاءُ أحسَبُها
قِدْمًا أشد من الزُّنْبور وقعَ حُمَا [5]

إلى أن يقول :

وليسَ يخلو امرؤٌ مِن حَاسِدٍ أَضِمِ
لولا التنافُسُ فى الدنيا لما أَضِمَا [6]

---

(١) إذا التى للمفاجأة ، تختص بالجملة الاسمية ، ولكن قد يحذف خبرها فتقول :خرجت فإذا الأسد .. أى :حاضر .

(٢) وربما قالوا : فإذا الأسدُ حاضرٌ ، فرفعوه على الخبر ، أو قالوا : فإذا الأسد حاضراً ، فنصبوه على الحال . وقد يتوالى بعدها ضَميران فيقال : فإذا هو هى ، أو فإذا هو إياها

(٣)الغمة : الغم ، وهو الكرب والحزن ، وجمعه غمم .

(٤) أعيت على الأفهام : يقال : أعيا عليه الأمر : أعجزه فلم يهتد لوجهه ، والحتف : الهلاك .

(٥) الحمة : سم كل شئ يلدغ أو يلسع ، والجمع : حمي .

(٦) يقال : أضم عليه يأضم أضما فهو أضم : أضمر حقده .

لقد كان وقع «الهزيمة» على نفس سيبويه شديداً!!

تُرىَ ، هل كان ما حدث مؤامرةً دُبّرت له فى الخفاء ؟!

ويقال : إنه سأل بعدها عمن يرغب فى النحو من الملوك ، فقيل له : «طلحة بن طاهر» فشخَص إليه بخُراسان ، فاشتد عليه المرض وهو فى الطريق فمات !

ولكن ما تاريخ وفاته ؟ وفى أى مكان توفى ؟ لم يتفق المؤرخون فى هاتين النقطتين ، كما لم يتفقوا على تاريخ ميلاده كل ما قيل : إنه مات وعمره اثنتان وثلاثون سنة ، وقيل : نيف وأربعون سنة ، ويذكر المحققون أن أرجح الأقوال فى تاريخ وفاته أنه توفى سنة ١٨٠هـ.

وذكر ابن دريد أنه مات بشيراز ، وقبره بها !

وقال الأصمعى : قرأت على قبر سيبويه بشيراز هذه الأبيات :

ذهب الأحبةُ بعد طُولِ تزاورٍ
ونَأى المزارُ فأسْلَموك وأقشعوا
تركوك أو حشَ ما تكون بقَفْرة
لم يُؤْنسوك ، وكربةً لم يَدْفَعُوا
وقضى القضاء وصرْتَ صاحبَ حُفْرة
عنك الأحبَّة أعْرضُوا وتَصَدّعُوا

لحظات الوداع

لما مرض سيبويه مرض الموت جعل يجود بنفسه ويقول :

يُؤَمِّل دُنْيـــا لِتَـــبْـــقَى له

فـــمـــاتَ المؤَمِّلُ قـــبلَ الأَمَلْ

حَـثـيـثًـا يُرَوِّى أُصُـولَ النَّخـيل

فـعـاش الفَـسِـيلُ [1] ومـات الرّجُلْ

ولما زادت العلّة عليه ، وضع رأسه فى حجر أخيه، فبكى أخوه إشفاقا عليه ، فتساقط الدمع على وجه سيبويه ففتح عينيه ، ونظر إليه ، فرآه يبكى فقال :

أُخَيّين كُنّا فَرّقَ الدهرُ بيننَا

إلى الأمـــدِ الأَقْـــصى ، ومَن يَأمنِ الدّهْرا ؟!

وهناك بيت من الشعر كثيرا ماكان يردده ، ويُنشده :

إذا بَـــلّ مِـــن داءٍ ظَـــنّ أَنّـــه

نَجـا ، وبه الداءُ الذى هو قـاتله [2]

وكأنما كان يتوقع الموت ، ففارق الدنيا ، وصعدت روحه إلى باريها ، ليبقى «كتابه» حيًا بيننا يملأ الدنيا ، ويشغل الناس من بعده إلى اليوم !

(١) الفسيل : جمع فسيلة ، وهي النخلة الصغيرة تقطع من الأم ، أو تقلع من الأرض فتغرس .

(٢) بَلّ ، وأبل : برأ وصح .